أحاديث إصلاح القلوب

(٢٢)

عواقب الذنوب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٤]». رواه التِّرمذيُّ(١).

إنَّ من الأمور النَّافعة للعبد في إصلاح قلبه النَّظر في عواقب الذُّنوب ومضارِّها الجسيمة على المرء في دنياه وأخراه، ولا سِيَّما أضرارها على قلبه، فإنَّ للمعاصي من الآثار الخطيرة على القلب ما لا يعلمه إلَّا الله سبحانه، وللإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الدَّاء والدَّواء تفاصيل نافعة في ذكر هذه الآثار، وفيما يلي تلخيص لبعض ما ذكر.

فمن عواقب الذنوب الوخيمة: حرمان العلم، فإنَّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النُّور.

ولمَّا جلس الشَّافعيُّ بين يدي مالك وقرأ عليه؛ أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه؛ فقال: «إِنِّي أَرَى اللهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ المَعْصِيَةِ»[١].

وقال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدَني إلى تركِ المعاصي

وقال اعلَمْ بأنَّ العلمَ فضلٌ ... وفضلُ الله لا يؤتاه عاصِ

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذَّة أصلًا. ولو اجتمعت له لذَّاتُ الدُّنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحسُّ به إلَّا مَن في قلبه حياة. و«ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ»، فلو لم يترك الذُّنوب إلَّا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًّا بتركها.

شكا رجل إلى بعض العارفين وحشةً يجدها في نفسه فقال له:

إذا كنتَ قد أوحشتك الذُّنوبُ ... فدَعْها إذا شئتَ واستأنسِ

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسُّ بها كما يحسُّ بظلمة اللَّيل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظُّلمة الحسِّيَّة لبصره. فإنَّ الطَّاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلَّما قويت الظُّلمة ازدادت حيرته، حتَّى يقع في البدع والضَّلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر.

قال عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الوَجْهِ، وَنُورًا فِي

---

(١) رواه البيهقيُّ في مناقب الشَّافعيِّ (١/ ١٠٣).

القَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي البَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الخَلْقِ. وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي القَلْبِ، وَوَهَنًا فِي البَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبِغْضَةً فِي قُلُوبِ الخَلْقِ»[1].

ومنها: أنَّ المعاصي توهن القلب والبدن.

أمَّا وهنها للقلب، فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتَّى تزيل حياته، وأمَّا وهنها للبدن، فإنَّ المؤمن قُوَّته من قلبه، وكُلَّما قوي قلبه قوي بدنه.

ومنها: حرمان الطَّاعة. فلو لم يكن للذَّنب عقوبة إلَّا أنَّه يصدُّ عن طاعة تكون بدَلَه، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه طريقُ ثالثةٍ، ثمَّ رابعةٍ، وهلمَّ جرًّا. فينقطع عليه بالذَّنب طاعات كثيرة، كلُّ واحدة منها خير له من الدُّنيا وما عليها. وهذا كرجل أكل أكلةً أوجَبَتْ له مرضة طويلةً منعته من عدَّة أكَلات أطيب منها.

ومنها: أنَّ المعاصي تزرع أمثالَها ويُوَلِّد بعضها بعضًا حتَّى يعزُّ على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السَّلف: إنَّ من عقوبة السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدها، وإنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها. فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جانبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثَّانية كذلك، وهَلُمَّ جرًّا، فتضاعف الرِّبح، وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب السَّيِّئات أيضًا،

---

(١) نقله ابن القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٥٤).

حتَّى تصير الطَّاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة.

ومنها -وهو من أخوفها على العبد- أنَّها تُضعِف القلبَ عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التَّوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التَّوبة بالكُلِّيَّة، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله.

ومنها: أنَّه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ النَّاس له، ولا كلامَهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التَّهتُّك وتمام اللَّذَّة، حتَّى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويُحَدِّث بها مَن لم يعلم أنَّه عملها، فيقول: يا فلان عملتُ كذا وكذا!

وهذا الضَّرب من النَّاس لا يُعافَون، وتسدُّ عليهم طريق التَّوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ. وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ عَلَى الْعَبْدِ، ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ، وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيَهْتِكُ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ**»[1].

ومنها: أنَّ العبد لا يزال يرتكب الذَّنب، حتَّى يهون عليه، ويصغر في

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٦٩).

قلبه. وذلك علامة الهلاك؛ فإنَّ الذَّنب كلَّما صغُر في عين العبد عظُم عند الله.

وقد ذكر البخاريُّ في صحيحه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ. وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، فَطَارَ**»(١).

ومنها: أنَّ المعصية تورث الذُّلَّ، ولا بدَّ؛ فإنَّ العِزَّ كُلَّ العزِّ في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]. أي: فليطلبها بطاعة الله؛ فإنَّه لا يجدها إلَّا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السَّلف: «اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ، وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ»(٢).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ:

رأيتُ الذُّنوب تميت القلوبَ ... وقد يورث الذُّلَّ إدمانُها

وترك الذُّنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانُها

ومنها: أنَّ الذُّنوب إذا تكاثرت طُبِعَ على قلب صاحبها، فكان من

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٠٨).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٩٦).

الغافلين؛ كما قال بعض السَّلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين ١٤] قال: هو الذَّنب بعد الذَّنب.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى يَعْمَى القَلْبُ»(١).

وقال غيره: «لَمَا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ»(٢).

وأصل هذا أنَّ القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصَّدأ حتَّى يصير رانًا، ثمَّ يغلب حتَّى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف؛ فإن حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولَّاه عدوُّه، ويسوقه حيث أراد.

ومن عقوبات الذُّنوب: أنَّها تطفئ من القلب نارَ الغيرة الَّتِي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزيَّة لحياة جميع البدن. فالغيرة حرارته وناره الَّتِي تُخرج ما فيه من الخَبَث والصِّفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذَّهب والفضَّة والحديد. وأشرف النَّاس وأعلاهم همَّةً أشدُّهم غيرة على نفسه، وخاصَّته، وعموم النَّاس.

ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ أغيرَ الخلق على الأُمَّة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما ثبت في الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ**

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في التَّوبة (١٩٦).

(٢) نقله ابن القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٦٠).

مِنْهُ، وَاللهِ أَغْيَرُ مِنِّي»[١].

وفي الصَّحيح أيضًا عنه أنَّه قال في خطبة الكسوف: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»[٢].

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الَّذِي هو مادَّة الحياة للقلب، وهو أصل كُلِّ خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

وفي الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»[٣].

وقال: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ!»[٤].

ومن عقوبات الذُّنوب: أنَّها تُضْعِف في القلب تعظيمَ الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ، وتُضْعِف وقارَه في قلب العبد، ولا بدَّ، شاء أم أبى. ولو تمكَّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه.

وكفى بالعاصي عقوبةً أن يضمحلَّ من قلبه تعظيمُ الله جَلَّجَلَالُهُ، وتعظيمُ حرماته، ويهونَ عليه حقُّه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) رواه مسلم (٣٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٣٤٨٤).

ومن عقوباتها: أنَّها تُخرِجُ العبدَ من دائرة «الإحسان» وتمنعه ثوابَ المحسنين؛ فإنَّ الإحسان إذا باشر القلبَ منَعَه من المعاصي، فإنَّ من عَبَدَ الله كأنَّه يراه لم يكن ذلك إلَّا لاستيلاء ذكره ومحبَّته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنَّه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها.

ومن عقوباتها: أنَّها تُضْعِفُ سيرَ القلب إلى الله والدَّار الآخرة، أو تعوقه، أو توقفه وتقطعه عن السَّير، فلا تدَعه يخطو إلى الله خطوةً. هذا إن لم تردَّه عن وجهته إلى ورائه! فالذَّنب يحجب الواصل، ويقطع السَّائر، وينكس الطَّالب. والقلب إنَّما يسير إلى الله بقُوَّته، فإذا مرض بالذُّنوب ضعفت تلك القوَّة الَّتِي تُسَيِّره. فإن زالت بالكُلِّيَّة انقطع عن الله انقطاعًا يبعُد تداركُه.

فالذَّنب إمَّا أن يميت القلب، أو يُمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قُوَّته، ولا بدَّ، حتَّى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثَّمانية الَّتِي استعاذ منها النَّبِيُّ ﷺ. وهي: الهمُّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلَع الدَّين وغلبة الرِّجال.

ومن عقوباتها: أنها تُزيل النعم وتُحِلّ النِّقَم. فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاءً إلا بذنب، ولا رُفِعَ بلاءً إلا بتوبة وقد قال تعالى: {وَمَا

أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)} [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى (١): {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: ٥٣].

فأخبر تعالى أنه لا يغيّر نعَمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه، فيغيّر طاعةَ الله بمعصيته، وشكرَه بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه. فإذا غَيَّرَ غُيِّرَ عليه جزاءً وفاقًا، وما ربّك بظلاّم للعبيد. فإنْ غيّر المعصيةَ بالطاعة غيّر الله عليه العقوبةَ بالعافية، والذلَّ بالعز.

وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)}

وقد أحسن القائل:

إذا كنتَ في نعمة فَارْعَها ... فإنّ المعاصي تُزيل النِّعَمْ

وحُطْها بطاعةِ ربِّ العبادِ ... فربُّ العبادِ سريعُ النِّقَمْ

ومن عقوباتها: أنَّها تَصْرِفُ القلبَ عن صحَّته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولًا، لا ينتفع بالأغذية الَّتِي بها حياته وصلاحه، فإنَّ تأثير الذُّنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل

الذُّنوبُ أمراضُ القلوب وأدواؤها، ولا دواء لها إلَّا تركها[١].

حفظ الله قلوبنا أجمعين وصانها ووقاها وزكاها.

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء (ص٦٦ - ٧٦).